المحظوظ – قصة قصيرة

لم أكن أتصور أنني سأقابل "محسن" وهو يعبر أمام سيارتي عند إشارة المرور. ناديته وها هو يقل مبتسماً ابتسامته العريضة ويركب الى جواري دون كلفة، هكذا كان "محسن" دائماً، لا كلفة ولا حساسيات. تغير ضوء الإشارة وانسابت السيارات في بطء وانسابت معها الذكريات، والحق أنني أذكر كثيراً عن "محسن" فهو شخصية عجيبة !

أذكر بداية تعرفي عليه وهويقف خطيباً وسط جموع الطلبة مطالباً بالإضراب بسبب قضية ما وإذ لاحظ أنني أعلق على كلامه بسخرية ، استدار نحوي منتهراً. هكذا بدأت علاقتنا بخناقة! ولا أذكر كيف تحولنا الى أصدقاء، ولكننى أذكر أنه كان دائماً يضيع وقتاً وجهداً كثيراً من أجل خدمة الآخرين. أذكر يوم جاءني يخوض في مياة الأمطار ليسأل عن صحتي عندما تغيبت عن الكلية لإصابتي بنزلة برد، أتاني حاملاً معه كشكول المحاضرات، كنت وقتها أسكن الوايلي ، أما الآن فشقتي تطل على نيل العجوزة.

أذكر سهرتي معه حتى قبيل الفجر ليلة امتحان لم أكن مستعداً له، سهر معى يشرح ويعيد ثم يبتسم لي مطمئناً. وهكذا اجتزنا الامتحان معاً.

أذكر نكاته الحاضرة دائماً، وقهقهته العالية التي لم تكن لتنخفض طبقتها أمام صغير أو كبير أو حتى أمام عميد الكلية.

توقع الجميع أن يكون له مستقبل باهر، ولم أدري ماذا فعلت به الأيام فقد تباعدنا بعد التخرج، وانطلقت أشق طريقي بصعوبة .. من مندوب للتأمين الى مندوب للمبيعات وكم عانيت من صعوبات في التعامل في السوق ، لقد تجرعت المر حتى أصبحت لى شركة للتصدير والاستيراد.

تنهدت عندما تذكرت ذلك وأنا أنظر الى "محسن" وهو يضحك ناظراً الى الناس في الشارع. "هؤلاء الناس دائماً متعجلون، لست أدري الى أين يسرعون هكذا؟ ولعلهم هم أيضاً لا يدرون! طبعاً فهو لم يعان مثلما عانيت حتى صنعت نجاحي ، فمنذ التخرج وحتى الآن وهو موظف في الحكومة!

كنت أسمع أخباره على فترات متباعدة، وعلمت كيف كان زملاء الدراسة يلجأون إليه ليساعدهم على التفكير والتخطيط لمشاريعهم، والغريب أنه لم يفكر في مشروع لنفسه قط، وكنت اتساءل، ترى ما هو هدفه في الحياة؟ إنني أعلم يقيناً أن فرصاً اتيحت له للهجرة وللعمل في الخليج، ولكنه لم ينتهزها، هكذا هو دائماً، لم يكن ليرى الفرصة حتى وهي بين يديه.

"ما أخبارك يا "محسن"" سألته، فاجابني مبتسماً كالمعتاد "الحمد لله ، كل خير" فلم يكن ليشكو أبداً. وأذكر يوم ذهبت أعزيه في وفاة ابنته الوحيدة، وكيف كان متماسكاً، بل إنه ابتسم في وجهي وهو يشكرني على حضوري، وكأنه هو الذي يعزيني!. هذا هو "محسن" دائماً في ملكوت آخر.

لقد قدم الخدمات للكل، ولا أذكر واحداً رد إليه الجميل ، فلماذا يبدو سعيداً على الدوام؟ في الغالب هو يتظاهر بذلك، أو لعله بلا هم فعلاً، وأي هم يحمله وهو أول كل شهر يقبض راتباً جاهزاً دون أن يفعل شيئاً؟! وتذكرت مأمور الضرائب وهو يحاسبني بسماجة وحقد سمما بدني، حتى اضطر الطبيب أن ينصحني بتجنب الانفعال. أين "محسن" من حرق الدم هذا ودخله لم يتجاوز قط حد الاعفاء الضريبي!

ذات مرة وجدته أمامي في المكتب، فقلت لعله بحاجة الى شئ، لكنه خيب أملي ولم يطلب شيئاً. كان في مشوار قريب على حد قوله وقرر أن يمر عليّ ليراني ويشرب معي فنجاناً من القهوة، وبينما يشربه كنت اتجادل مع أحد العملاء مقسماً له أن صنف البضاعة الذي يحتاجه ليس موجوداً عندي، بل إن "محسن" تدخل في النقاش حتى استطاع أن يقنع العميل أن الصنف ليس موجوداً بالفعل. مسكين "محسن" !! كيف كان له أن يعلم أن مخزني مملوء بكميات من هذا الصنف بالذات، احتجزها حتى يرتفع السعر؟

الآن أذكر مرة واحدة رأيته فيها حزيناً، حين تجاوزته الترقية حتى صار من هم أصغر منه يرأسونه، ولكن سرعان ما عاد يبتسم مردداً "هكذا أفضل ، دعهم يتصارعون على الرئاسة أما أنا فلأكن رئيساً لنفسي" ألم أقل لكم أنه منعدم الطموح؛ حاجة تقلق!

وها أنا أسأله السؤال التقليدي " "محسن"، ما هي آخر نكتة؟" فعنده دائماً أحدث النكات، فانطلق يرويها ثم ينفجر ضاحكاً كأنه يسمعها لأول مرة!

وها هو وسط الضحك يطلب مني إيقاف السيارة لكي ينزل فحاولت إقناعه بأنني سأوصله الى منزله، إلا أنه أصر على النزول قائلاً أنه قد تعود على ركوب الميكروباس.

نظرت إليه وهو يطفر بساقه المهيضة التي اصيبت في مظاهرة قديمة، ويسرع ليلحق بالأتوبيس، فلم يكن يملك سيارة، كان مستريحاً من متاعب الميكانيكية وسرقات السمكرية. ألم أقل لكم أنه محظوظ، يالله من محظوظ!!